الأثر الذي تركته البيوتات المغربية على الحياة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية في مصر خلال القرن الثامن عشر

د. عزيز زروقي
المملكة المغربية

مدخل:

مثل المغاربة الذين عاشوا في مصر ثقلا كبيرا وقاعدة مهمة، ووجودا مغربيا في مصر لحقيقة واقعة يصعب الاختلاف عليها، طبعها انفتاح الحدود، وحرية الانتقال بين الدول العربية في العصر العثماني. وإذا لم يكن هذا الوجود وليد العصر العثماني وحده، فقد أسهم العثمانيون فيه بصورة كبيرة بعد تحويل مصر وبلدان المغارب إلى كيان سياسي واحد، سهل الانتقال والترحال بين أقاليم وولايات الدولة دون عوائق كبيرة. شكل الحج وموقع مصر الجغرافي من العوامل الأساسية وراء هذا الوجود المغربي الكبير أيضا، حيث كانت تستقبل المغاربة المتجهين إلى أرض الحجاز للحج أو العائدين منه، والتي كان لابد أن يعبروا عبر الأراضي المصرية، تلك التي استهوتهم إما للتجارة أو التعليم، ليقرروا أن يمددوا إقامتهم بها.

ساعد التجار المصريون المغاربة الدخول إلى عالم التجارة، حينما كانت تصل وفود الحجاج إلى القاهرة، وكانوا يقابلونهم ويبرمون معهم صفقات. كان المصريون يزودونهم ببضائع لبيعها في بلاد الحجاز، ومع مرور الوقت وجدت البيوتات المغربية أنها أصبحت منخرطة في التجارة المصرية المربحة، فكان البقاء هو الخيار الأفضل، فباتت القاهرة ثاني أكبر مدينة في الإمبراطورية العثمانية بعد إسطنبول، كما أن تجارتها كانت واسعة ومنتشرة، وكان المكسب فيها أكثر بكثير مما يمكن أن يتحقق في المغرب وقتها.

داعت الأخبار في المغرب سريعا أن مصر بلاد الأحلام، حيث المكسب الوفير والترحاب الشديد، أما بالنسبة للعادات فما أشبه ما وجدوه مقارنة بعيشتهم في المغرب، فكانت قريبة جدا واللغة أيضا، والمؤسسات والمساجد، حتى الحمامات الشعبية؛ أي سهولة في التأقلم كانت للمغاربة بين أبناء مصر. استأثرت مدينة القاهرة بوصفها حاضرة الولاية المصرية، بنسبة كبيرة من البيوتات المغربية التي أقامت بجميع أحيائها وانتشارها فيها. كما احتفظت الإسكندرية بنصيب وافر من المغاربة بوصفها بوابة مصر الغربية، حتى إننا نرى الروح المغربية موجودة في كثير من أسماء المدن المصرية؛ في أوليائها الصالحين، وأسماء أحيائها وشوارعها وحاراتها. أشهرها حي "ابن طولون" والذي كان مركزا للمغاربة، وما زال إلى اليوم أثرا شاهدا لبقايا العائلات المغربية القاطنة به آنذاك.

إن دراسة البيوتات أو العائلات أو الجاليات أو الأقليات أو الطوائف في مصر إبان العصر العثماني حظيت باهتمام متزايد من قبل الباحثين والمؤرخين بهدف دراسة البناء الداخلي للمجتمع المصري في هذه الفترة المهمة من تاريخ مصر، وفي صفحة من صفحات العلاقات بين مصر والمغرب المشرقة في تاريخ الأمم، علاقات كان نتيجة كثرة الأسفار والرحلات من بلاد المغرب إلى مصر، ومن مصر إلى بلاد المغرب. إلا أن البيوتات المغربية كانت أقل الطوائف حظا من الدراسة، فلم يحظ المغاربة رغم ثقل وجودهم في مصر إلا بدراسات بئيسة كتلك؛ للأستاذ: **عبد الرحيم عبد الرحمن**، وللأستاذ: **حسام محمد عبد المعطي**.

تاريخ البيوتات المغربية في مصر وعلاقاتهم الاجتماعية المتنوعة وأدوارهم في تحريك الاقتصاد المصري وتغيير بنية المدينة عمرانيا، وعلاقاتهم بالجاليات الأجنبية الأخرى، هو تاريخ لخلية اجتماعية اقتصادية وعمرانية متحركة، تاركة من ورائها أثارا وشواهد باقية للبيوتات المغربية القاطنة بها في نسيج المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر.

إن كلمة "المغربي" هنا تعني بالأساس "المراكشيين" وتعني أيضا في الأساس المغرب الأقصى أو مراكش، علما أنه في هذه الفترة كان يطلق على كل الوافدين من ليبيا إلى المغرب دول المغارب. الغاية ليست دراسة البيوتات المغربية في حد ذاتها فقط، بل دراستها كخلية اجتماعية عمرانية اقتصادية متحركة، أو بصورة أوضح دراسة حراك المجتمع من خلال البيت المغربي، وعلى نحو خاص ترجمة للنخب التجارية المغربية وتأثيرها اجتماعيا واقتصاديا وعمرانيا إبان تلك الفترة التاريخية، والمدى الجغرافي الذي اتخذته معاملاتهم التجارية بمختلف أنواعها، والرخاء الذي تمتعوا به وأسبابه، في الوقت الذي غلب الظن فيه أن الاقتصاد المصري قد أصابه الكساد.

إن مؤسسة مصطلح "البيوتات" تصلح أن تكون مؤشرا لهذا التطور التاريخي بعيدا عن الوجود العثماني، فما كان متعارفا عليه هو أن العثمانيين لم يتدخلوا بتاتا في شؤون الحياة الأسرية والعائلية، وتعد تلك فرصة سانحة لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية في المجتمع المصري من داخل بناء النظام الحياتي للناس وللمجتمع، وليس من خلال الدولة والقوانين والنظم، كما أنها تقدم نظرة متعددة الزوايا لشخصيات هذه البيوت التي تناولتها، فتتضمن المظاهر المختلفة لعلاقاتهم بالمجتمع، مما يساعدنا على أن نضع التغيرات الاقتصادية في سياق اجتماعي وعمراني بدلا من دراستها كظاهرة مجردة منعزلة عن أي سياق محدد، ليحمل هذا المقال عنوانا دقيقا ألا وهو: "**الأثر الذي تركته البيوتات المغربية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية في مصر خلال القرن الثامن عشر** " محاولا الإجابة عن أسئلة من قبيل:

هل فعلا لعبت البيوتات المغربية في القرن الثامن عشر دورا مهما في مصر؟ كيف ساهمت في إضفاء الطابع الاجتماعي على المجتمع المصري من خلال اندماج عاداتها وتقاليدها؟ وهل فعلا كانت رغبة التجار المغاربة الظهور كشخصيات عامة في المجتمع المصري عاملا مهما في تفعيل دورهم في التنمية العمرانية؟ وما هو الدور الاقتصادي الهام الذي لعبته البيوتات المغربية عبر أنشطتها التجارية في ظل الظروف الاقتصادية المتقلبة آنذاك؟

المبحث الأول: التأثير الاجتماعي للبيوتات المغربية على المجتمع المصري

شكلت البيوتات المغربية لبنة هامة في البناء الاجتماعي المصري خلال العصر العثماني باعتبارها بيوتات شاركت الأكثرية في الخصائص الثقافية والاجتماعية العامة كجزء من البناء المجتمعي الذي امتصهم في النهاية، ليتحولوا من مغاربة وافدين، إلى مغاربة أصحاب الأرض، ويشكلوا مع المصريين والشوام و الأتراك وغيرهم جسدا اجتماعيا واحدا كونه المجتمع المصري. عاش المغاربة داخل المجتمع المصري كجالية أجنبية، وكبيوتات شاركت الأكثرية في الخصائص الثقافية والاجتماعية العامة باعتبارهم جزءا من البناء الاجتماعي أثروا في هذا البناء ثقافيا واجتماعيا، صهرهم المجتمع كجزء لا يتجزأ منه، ليتخطوا بذلك جدلية العلاقة بين المجتمع المصري والبيوتات المغربية الوافدة، لتستمر متماسكة، وتذوب أخيرا في بناء هذا المجتمع.

فما هي العادات والتقاليد التي نقلتها البيوتات المغربية إلى المجتمع المصري؟ وما الأثر الذي تركوه في البناء الاجتماعي للمجتمع المصري؟

يبدو أن تأثير المغاربة كان واضحا في الكثير من القيم والعادات التي أفرزوها داخل بنيان المجتمع المصري، لكنهم مارسوا حياتهم اليومية في شتى جوانبها داخل إطار الحياة العامة للمجتمع المصري، ولم يشذوا يوما عن البناء الاجتماعي منذ هجرتهم، حيث ساعدت وحدة اللغة والدين والثقافة على سهولة امتصاصهم داخل بنيان المجتمع، وإن ظلت لهم شخصيتهم المميزة وحضورهم المادي الملموس لفترة طويلة. إن اشتغال أفراد البيوتات المغربية الذين استقروا بالمدن المصرية بالتجارة والحرف المهنية والصناعية، وطلب العلم وبالتدريس، جعلهم على علاقة واسعة ومتينة بمختلف شرائح المجتمع المصري آنذاك، مما أتاح لهم فرصة الاندماج الواسع، و إقامة علاقات اجتماعية معها دما و معاملة[1].

لم تكن البيوتات المغربية منغلقة اجتماعيا، بل شكل الزواج أحد مظاهر الاندماج الاجتماعي لأفرادها مع المجتمع المصري. وأصبح التزاوج بالمصريات و الشاميات منتشرا و شيئا عاديا. هذا فضلا عما تركته هذه العملية من التأثر و التأثير في العادات و التقاليد و الأعراف بين هذه الأسر المتصاهرة. كما انتشرت الأطعمة المغربية في القاهرة والإسكندرية، وتأثر قطاع كبير من المصريين باللهجة المغربية في الاسكندرية2. كانت أغلب البيوتات المغربية تدخل في عمليات مصاهرة قوية مع بعضها من أجل دعم نشاطها الاقتصادي وتفعيل دورها التجاري. ومع مرور الوقت وبعد جيل أو اثنين أصبحت تتصاهر مع عائلات تركية كذلك لتتكافأ معها في نفس المكانة الاقتصادية و الاجتماعية[3].

ثمة ظاهرة لطيفة بالنسبة للتجار المغاربة فقد قاموا بتزويج العبيد الذين يعملون في التجارة بعد أن قاموا بعتقهم، وفي بعض الأحيان يدفعون بهم في الفرق العسكرية كما فعل الخواجا **محمد بن عبد الرحمان الحنفري الفاسي** في القاهرة خلال الربع الأخير من القرن 18 حيث قام بتزويج معتوقه من أخت زوجته – **صفية بنت عبد الفتاح**[4]. وفي الإسكندرية كان للمغاربة طائفة كبيرة تقوم بدور أكثر ثقلا في جميع نواحي الحياة الاجتماعية و الاقتصادية والعمرانية للمدينة، وكان شيخ طائفة المغاربة يلي في الأهمية الاجتماعية في المدينة "نقيب الأشراف"، وكان يمارس سلطات قوية على أغلب المغاربة في المدينة ، كما كان مسؤولا عن رعاية الأرامل واليتامى في المدينة، وكان عليه الإشراف على الزوايا و الأضرحة التي أقامها المغاربة في الإسكندرية[5]؛ كزاوية "المغاربة المصامدة" والتي كانت تقدم فيها وجبات غذائية للفقراء من المغاربة الوافدين على الثغر خاصة من بني وطنهم، كما كانت تمتلك مجموعة كبيرة من الأوقاف وكان شيخ الطائفة في الغالب هو الناظر على إدارتها. إذ نجدهم أسهموا في بناء الكتاتيب والأسبلة أيضا.

---

[1]– عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517–1798م)"، **المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية**، تونس،(1982م)، 113.

[2]– نفسه، 115.

[3]– حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008م)، 331.

[4]– نفسه، 346.

[5]– حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 321.

لعل المكانة الاجتماعية المتميزة التي حصلت عليها فئة كبار التجار المغاربة ساهمت في التأثير الاجتماعي على المجتمع المصري نتيجة اتساع دائرة علاقاتها الاجتماعية التي اشتملت كل الفئات من فئة الأمراء إلى الفئة الفقيرة المعدمة، ومديد الاحسان لها حتى حظيت بتقدير الجميع، وأصبح المجتمع المصري يتغنى بكرم هذه الأسرة وسخائها وإحسانها... إلى جانب وقفها الكثير من العقارات على أوجه البر والإحسان وعلى طلبة العلم، والتي تركت بصماتها القوية على الحياة الاجتماعية المصرية[6].

هكذا يتضح لنا أن تأثير البيوتات المغربية في الحياة الاجتماعية المصرية كان له دورا إيجابيا، يقوم على التأثير والتأثر المتبادل. فلم يشعر هؤلاء بالغربة داخل المجتمع المصري، مما ساعدهم على الاندماج والتغلغل في بنيته والتأثر به، والتأثير فيه على مختلف مستوياته وأصعدته.

المبحث الثاني: تأثير البيوتات المغربية في تشكيل المعالم العمرانية للمدينة المصرية

إن عمران المدينة من أسباب ونتائج التوسع الحضاري الذي تعيشه الدول في فترات معينة، ويمكن أن تندرج ضمن ذلك مدن أخرى، مثل فاس ومراكش والقيروان وقرطبة والقاهرة. فالتوسع الحضاري والمعماري يرتبط بقوة الدول، إذ كلما استقرت الدول تمكنت من التفنن في ابتداع وابتكار أشكال كثيرة على مستوى البناء، وكلما انقرضت، انكسرت وتهادى معمارها وتخلف الذوق الفني. لأن ذلك ينعكس على المدن فيتراجع المعمار وينكمش. فمازالت الحضارة العربية بمساجدها ومعمارها وبدورها شامخة ومعبرة عن طبيعة المعمار، وهندسته بمرجعياته القيمية والثقافية في الأندلس. وهذا وبنفس المنطق يرتبط بمستوى آخر؛ بطبيعة البشر، واستقرارهم حضاريا وسياسيا واجتماعيا في ظل دولة قوية بدأوا يفكرون في ابتكار كل أشكال البناء التي تستجيب للذوق الإنساني الرفيع والباذخ، ولمتطلبات المتغيرات التي تتم في حضن الدولة.

تأسست الثقافة والحضارة الإنسانية كلها على مجال العمران، كما يسميه **ابن خلدون**، ومعناه المتعدد العمران الإنساني أي الحضارة الإنسانية، والذي تتجلى صوره في بناء المدن والمساجد والكنائس والأسوار والأسواق والمستشفيات، وغير ذلك. فليس من اليسير اختزال تاريخ العمارة الاسلامية بفنونها، وأشكالها وهندستها في جانب من الجوانب؛ كونها تتميز بعراقتها ومرجعياتها التاريخية والحضارية والرمزية الدينية، سواء تعلق الأمر بالقصور والدور الكبيرة، أو ما يتصل بالحياة اليومية للإنسان ومجتمعه، وبيئته الجغرافية المتنوعة السهلية والجبلية والصحراوية، وفي كل ذلك تفاصيل أخرى.

كان عهد **محمد علي باشا** بمصر، نقطة تحول جذرية في مسار العمارة الإسلامية، بما أدخله من طرز معمارية وفنية أوروبية وافدة، تجلت بصماتها واضحة على شتى العمائر التي ترجع إلى عهده، وعهد من جاء بعده من الحكام والأمراء، بل والعامة من مختلف طبقات المجتمع المصري، وعن ذلك يقول **علي باشا مبارك**: (وأول من أدخل المباني الرومية في الديار المصرية هو **العزيز محمد علي**، فأحضر معلمين من الروم فبنوا له سراية "القلعة" وسراية "شبرى"... وحذا حذوه في إنشاء العمائر على هذا الأسلوب بنوه وأمراؤه... وحذا الأهالي حذو الأمراء، فكثرت المباني الرومية في داخل القاهرة وضواحيها)[7].

على الرغم من ذلك، فلم يكن هذا إيذانا بنهاية وجود الطراز العربي الإسلامي في العمارة المصرية خلال تلك المرحلة، لما له من تأصل وتجذر بعيد المدى طيلة قرون عديدة، والذي لم يكن من السهل محوه أو التخلي عنه بالكلية. فرغم سيطرة تلك الطرز الأوروبية الوافدة على جل العمائر لانفراد الساحة أمام المعماريين الأوروبيين، إلا أن هذا لم يمنع من ظهور طائفة من هؤلاء المعماريين الأجانب، الذين استهوتهم عناصر ومفردات الطراز الإسلامي في العمارة، فراحوا يستلهمونها لتزيين وزخرفة منشآتهم، كما اتجه آخرون منهم إلى استخدام تلك العناصر

[6]- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م)"، 118.

[7]- مبارك علي، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، ج 1، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، ط1، 1306هـ)، 83-84.

والمفردات ذات الطابع الإسلامي، وقوفا على رغبة بعض الأعيان والأثرياء في بناء منشآت مصممة على الطراز العربي الإسلامي، الذي يتسم بجماليته وثرائه الزخرفي، كما كان لعمل بعضهم في ديوان الأوقاف، وفي لجنة حفظ الآثار دور في تأثرهم بذلك الطراز الإسلامي[8].

ارتبطت محاولات إحياء الطراز الإسلامي في الربع الأخير من القرن الثامن عشر بمصر، بظهور اتجاهات ثقافية دعت إلى إحياء التراث المحلي والحضارة الإسلامية[9]، ومن ثم ظهرت مسميات مثل: "طراز النهضة الإسلامي"، "الطراز الإسلامي المستحدث"[10]. فكان من بين الطرز الإسلامية التي لاقت قبولا وانتشارا بالعمارة الإسلامية في مصر بوجه عام، ومدينة القاهرة على وجه التحديد، ذلك الطراز الوافد المعروف بـ"الطراز الأندلسي المغربي" [11]. والذي ساعد على انتشاره خلال تلك العصور الثلاثة عديد من العوامل السياسية، والدينية، والثقافية، والاجتماعية... الأمر الذي جعله لم يكن ليتوقف عند هذا الحد، بل استمر بقاؤه إبان العصر العثماني، وما تلاه خلال عهد **محمد علي** ومن بعده.

يعتبر الحديث عن الفن المعماري المغربي ترفا فكريا، وليس استهلاكيا، ولكن ضرورة بحثية نظرا لأن مثل هذه المواضيع هي تأكيد على الهوية الوطنية وعلى تجذر الأمة المغربية في التاريخ وعلى عمق الشخصية المغربية وتعدد روافدها الثقافية. فإذا كانت الدراسات التاريخية قد تناولت دور المغرب في نشر الحضارة بحوض المتوسط ودوره في العلاقات الدولية والديبلوماسية وأفسحت المجال لدراسة أعلام الفكر والدين، فإن ميادين الحضارة المادية المتمثلة في الآثار والفنون والصناعات، التي تعكس الجانب الفكري والثقافي والعقائدي، وتشرح المستوى الاجتماعي والاقتصادي لم تتح لها دراسات خاصة مستفيضة تلم شتات تلك المفاخر[12].

شكل المجال المعماري سمة بارزة في التطور الحضاري المغربي مستفيدا من موقعه الجغرافي بكونه مجالا للتفاعل الحضاري، ولمرور العديد من التيارات الثقافية على مر العصور، ومن ذلك الحضارة الأندلسية. فالمغرب قد تأثر بعمق ومازال بهذه الحضارة، ومازالت فنون هذه المدن تعيش في تراث ذلك الفن الاسباني المغربي منذ عصور المرابطين والموحدين والمرينيين[13]. حتى صار اسم الحضارة الأندلسية يذكر مقرونا بالحضارة المغربية، لأن الإشكال المطروح هنا؛ هو ضرورة وضع تأثير الأندلس في المغرب بموقعه الصحيح، وتجنب كل أشكال الغلو والمبالغة في تقديره.

إذا كانت المصادر المغربية[14] تتميز بنوع من النمطية والتكرار بحيث أن استقرار تقاليد الكتابة لدى مؤرخي العصر الوسيط، جعل من الصعب الحصول على جديد بداخلها، فالمعلومات عادة ما تنصب على الحدث السياسي والعلمي، بينما لا يأتي الحضاري إلا عرضا. فبالمقابل نجد الكتابة الاستشراقية تغالي كذلك في إبراز هذا التأثير، ودوره في الدفع بعجلة العمران المغربي إلى مصاف الإبداع.

اكتسى المعمار المغربي الإسلامي أوصافا انفرد بها، وأبعادا كثيرة حضارية وتاريخية لمغرب زاخر بتراث بدءا من الأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين. من هنا يبقى "الحديث عن أهم التأثيرات التي انتقلت من بلاد المغارب على العمارة في مصر، الحديث عن طرق انتقال المغاربة إلي مصر وأماكن تواجدهم، وأهم التأثيرات المغربية على العمارة المصرية عامة، والعمارة الإسلامية خاصة، وتناولها بالوصف والتحليل. بيوتات مغربية تركزت أولا بمنطقة حي "طولون"، كون مسجد **ابن طولون** كان يستخدم كنقطة تجمع للحجاج، وكمقر لإقامة في

---

[8]- عبد الحفيظ محمد علي، **دور الجاليات الأجنبية والعربية في الحياة الفنية في مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: دراسة أثرية حضارية وثائقية**، ج 1، (القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، مخطوط رسالة دكتوراه، 1421هـ/ 2000م)، 158.

[9]- فرغلي شيرين فوزي، **قصر الأمير محمد علي وملحقاته بجزيرة الروضة**، ج 1، (القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية دراسة أثرية معمارية. مخطوط رسالة ماجستير، 1430هـ/ 2009م)، 222 .

[10]- عبد الحفيظ محمد علي، **دور الجاليات الأجنبية والعربية في الحياة الفنية في مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، 158 .

[11]- مارسيه جورج، **الفن الإسلامي**، ترجمة: عبلة عبد الرازق، (القاهرة: منشورات المركز القومي للترجمة، ط 1، 2016م)، 141- 169- 217- 241.

[12]- اسماعيل عثمان عثمان، **تاريخ العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج1، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1993م)، 42.

[13]- جورج مارسيه، **الفن الاسلامي**، ترجمة: عفيف بهنسي، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، 1968م)، 137.

[14]- علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور (الرباط: المطبعة الملكية، ط 2، 1411هـ /1991م)، 58.

كثير من الأحيان، وكونه قريبا من أسواق ميدان "الرميلة" حيث تباع لوازم وأدوات الحجاج. ومنذ بداية العصر العثماني كان للمغاربة السيطرة الكاملة على أسواق "طولون"[15].

اقتصر المكان الثاني الذي ارتكزت فيه البيوتات المغربية "بمصر على حي "باب الشعرية" والذي سكنه المغاربة الأكثر فقرا والحرفيون، والذي مازالت فيه حارة "المغاربة" تشهد على ذلك، بينما نجد حي "الغروية" وقد كان من أهم أحياء القاهرة التجارية؛ بجذب بيوتات وتجار فاسيين هاجروا إلى مصر في القرن 18م، وكانوا من ذوي الثروات الكبيرة، ورؤوس أموال ضخمة، استطاعوا شراء حوانيت وحواصل ومخازن في "الغروية". في حين كان مكان الاستقرار الثالث لدوافع وأسباب ثقافية ودينية؛ بالضبط بمنطقة الأزهر الذي كان مركز جذب طبيعي للبيوتات المغربية، إذ حرص التجار المغاربة علي امتلاك منازل ورباع لهم في هذه المنطقة، لتأجيرها للحجاج المغاربة، ولينزل بها أقاربهم بجوار الجامع الأزهر، أما حي "الأزبكية" فقد كان الحي الأرستقراطي واستقرت به البيوتات الأكثر ثراء؛ مثل: بيوتات **الرويعي** و**الشرايبي** و**غراب** و**البناني** و**القباج** و**مشيش** و**الشرفي**، وغيرها، حيث بنوا قصورا فخمة. باتت الإسكندرية مدينة مغربية علي أرض مصرية، وكان تواجد المغاربة هناك كثيفا جدا، إذ لعبوا دورا كبيرا في إعمار المنطقة الواقعة شمال الثغر، والمعروفة ب "الجزيرة الخضراء"، ولا تزال المدينة الحالية تحتفظ بأسماء البيوتات المغربية؛ مثل: بيت **كرموز** و بيت **الشاطبي** و بيت **البيطاش**، وغيرها من الأسماء"[16].

تمثلت تأثيرات البيوتات المغربية في تسمية "القاهرة بمدينة "المنصورية"، وتسمية بعض أبواب القاهرة؛ مثل: "باب الفتوح" و"باب زويلة". أما تخطيط المساجد في مصر فقد شمل المجاز القاطع بالجامع الأزهر، وجامع **الحاكم بأمر الله**، وتعدد القباب بالجامع الأزهر، وجامع **الحاكم بأمر الله**، والمداخل البارزة بجامع الحاكم **بأمر الله**، وجامع **الصالح طلائع**، والجامع **الأقمر**، ومشهد **الجيوشي**، والمآذن بجامع **الحاكم بأمر الله**، ومشهد الجيوشي، والصحن الجنائزي بجامع **الصالح طلائع**. ثم استخدام الحداريات بالجامع الأزهر، وجامع الأقمر، وجامع **الصالح طلائع**، والمحاريب الرمزية بالجامع الأزهر، ومشهد السيدة **رقية**، ومشهد **يحيي الشبيه**، وجامع **أحمد بن طولون**". وصلت التأثيرات المغربية حتى طريقة تغطية مداخل جامع **الحاكم بأمر الله**، وجامع **الأقمر** وجامع **الصالح طلائع** ومشهد **الجيوشي** ب "قبوات"، كما ظهرت التأثيرات المغربية في القبوات المتقاطعة التي ظهرت في بوابتي؛ "الفتوح"، و"زويلة" وعلى القاعات الجانبية بمشهد **الجيوشي**. حتى المحاريب المتنقلة ووجود حجرة خاصة بالمنبر المتنقل هي ظاهرة من الظواهر القادمة من بلاد المغرب الإسلامي[17].

أما بخصوص ظاهرة "المحاريب المتنقلة، ووجود حجرة خاصة بالمنبر المتنقل هي ظاهرة من الظواهر القادمة من بلاد المغرب، أما الشرفات المسننة على واجهة جامع **الحاكم بأمر الله** هي بدورها تأثرت من شرفات جامع "القيروان". فيما يخص الزخارف الكتابية في استخدام الخط الكوفي . فلقد تم استخدام الإطار المستطيل الذي يحيط بعقد المحراب وكوشتيه. وحينها تأثرت القباب الفاطمية بمصر بالقباب المغربية من حيث الشكل والزخرفة، رغم تفوق زخارف القباب المغربية على القباب الفاطمية"[18].

استخدم العقد "الحدوي" في عقد باب المدخل المؤدي إلى مئذنة جامع **أحمد بن طولون** من عهد السلطان **لاجين**، وفي قاعدة المئذنة، وفي القنطرة التي تربطها بالجامع كذلك. استخدم عقد "حدوة الفرس" في العقد الذي يتوج مدخل مدرسة **المنصور قلاوون**، وفي عقود الصفة الجنوبية الغربية بذات المدرسة، وعقد المحراب بجامع **عبد اللطيف القرامز**، وعقود **سبيل كتاب سليمان جاويش**، وواجهه حمام **المالطيلي**، وعقد الباب المؤدي إلى الساحة المكشوفة بدهليز جامع **الجوهري**، وعلى مئذنة مدرسة **سلار**، و**سنجر الجاولي**. والواقع أن أناقة العقود "الحدوية" في كل هذه الأمثلة التي ترجع إلى العصر المملوكي ليست سوى نتيجة طبيعة للعلاقات الودية التي ربطت مصر ببيوتات المغاربة في

---

[15]- محمود سيد أبو المجد- جمال عبد الرحيم إبراهيم- عائشة محمد التهامي، "التأثيرات المغربية الأندلسية على العمارة الاسلامية في مصر"، **المجلة الدولية للتراث والسياحة والضيافة IJHTH**، تصدرها كلية السياحة والفنادق، جامعة الفيوم، المجلد 15، العدد 2، مصر، (2021م). 475.

[16]- نفسه، 475.

[17]- نفسه، 487.

[18]- نفسه، 487.

العصر المملوكي. اتخذت العقود "المفصصة" الأندلسية نموذجا لنظائرها في عمارة مصر الإسالمية حيث تظهر أمثلتها في واجهة جامع "الأقمر"، وفي نوافذ قبة مشهد **السيدة عاتكة**، وفي قبة السيدة **رقية**، وفي دعامات الواجهة الشمالية الغربية بقبة **الإمام الشافعي**، وعلى نوافذ المدرسة "الكمالية" المطلة على الصحن. وفي العمارة المملوكية نجدها في صورة زخرفية على المداخل الجانبية بجامع **الظاهر بيبرس**، وفي مئذنة **الناصر محمد بن قالوون**، وفي مئذنة مدرسة **سالار**، و**سنجر الجاولي**[19].

ومن بلاد المغرب انتقلت إلى مصر المملوكية فكرة التغطية "بقباب و قبوات وأسقف مقرنصة، أو ذات بطون مقرنصة، فمن نفس طابع القبوات التي ظهرت بصور زخرفية في الفراغ الأوسط المثمن الذي يمثل خوذة القباب بجامع قرطبة استلهم المعمار المملوكي فكرة القبوات المقرنصة. والمثل لذلك ما نشهده في سقف "لإوان" الجنوبي بمدرسة **برقوق** ب "النحاسين"، وفي مدخل "جامع بشتاك" بدرب "الجماميز" مدخل جامع **الماس الحاجب** بمنطقة "الحلمية"، وفي قبوة ودركاه جامع **المؤيد شيخ** و **الجاي اليوسفي** .تجلى استخدام تناوب الأوان كحلية معمارية في عمارة مصر المملوكية وذلك في المدخل الجنوبي الغربي لجامعه، وفي مدرسة **المنصور قالوون**، وعلى واجهه مدرسة **الناصر محمد بن قلاوون**، وفي مسجده بالقلعة، ومدرسة **برقوق**، إلى غير ذلك من منشآت المماليك بمدينة القاهرة وذلك بتأثير مغربي أندلسي[20].

ساهمت البيوتات المغربية في الحركة العمرانية في مصر خلال العصر العثماني لتعويض تراجع دور الفئات الحاكمة من الأمراء المماليك في إنشاء الفنادق والخانات والمساجد، خاصة بعد انتقال عاصمة الدولة إلى استنبول. كما أن تزايد ثروات التجار المغاربة بسبب انتعاش حركة التجارة الخارجية المصرية ، أسهم في بناء العديد من المنشآت التجارية الضخمة لاستيعاب عمليات تخزين السلع، وإعادة تصدير المنتجات. إضافة إلى أن النمو السكاني الذي شهدته المدن المصرية، خاصة مدن؛ القاهرة والاسكندرية ورشيد، والتي عرفت حركة وهجرة مغربية واسعة، استوجب توسعا عمرانيا في أغلب هذه المدن. فقد قام كبار التجار المغاربة بشراء وإقامة مجموعات سكنية كبيرة بقلب القاهرة. كما ساهم موسم الحج في دفعهم إلى إنشاء و امتلاك البيوت والمنازل لتأجيرها إلى مواطنيهم من الحجاج المغاربة، خاصة في منطقة الأزهر..."كما كان للتنظيمات المغربية تأثير قوي في تركيب بنية المدينة الحضرية واتساعها، حتى أننا نعثر على كثير من الشوارع و الحارات التي يرد ذكرها في سجلات محكمة الاسكندرية تحمل أسماء بعض المغاربة أو تسمى باسم "حارة المغاربة" "عطفة المغاربة" و"الشارع المغربي" [21].

كانت رغبة التجار المغاربة الظهور كشخصيات عامة في المجتمع المصري عاملا مهما في تفعيل دورهم في التنمية العمرانية والحضارية، فكان إنشاء مؤسسات خيرية ذات أثر نفعي عام تعطيهم شهرة وتأثيرا قويا داخل المجتمع. كما أن إقامتهم لمثل؛ هذه المنشآت كالمساجد والأسبلة والكتاتيب، ساعدهم على الاندماج داخل بنيات المجتمع المصري...حيث كان المغاربة من أكثر الجاليات الإسلامية التي أسهمت في بناء المساجد والزوايا في مصر[22].

فمن خلال استقراء وثائق المحاكم الشرعية المركزية التي كانت قائمة في القاهرة منذ بداية العصر العثماني والمتعلقة بأفراد الجالية المغربية، يظهر أن المغاربة كان لهم دور في التغيرات والتطورات التي شهدتها بنية القاهرة الحضرية حيث نعثر في بعضها على تسجيلات لبعض الوكالات المغربية التي انتشرت خارج حدود القاهرة، والتي كانت بداية لنقاط تجمع عمراني وحضاري سرعان ما ضمتها حدود القاهرة. ونتيجة لنشاطاتهم المتعددة، فإن كثيرا من خطط هذه الأحياء وتصميماتها وشوارعها أصبحت تحمل أسماء مغربية. كما أن خليجا من الخلجان الصغيرة التي كانت تتناثر على أطراف القاهرة أصبح يسمى باسم "الخليج المغربي"[23].

---

[19]- نفسه، 488- 489.

[20]- نفسه، 488- 489.

[21]- محمد حواش، **خطاب التضامن الاسلامي**، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث و النشر، ط1، 2013م)، 453.

[22]- حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 351 -352- 353.

[23]- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م"، 51.

تأسيسا على ما سبق يتضح أن التفاعل الحضاري والتلاقح الثقافي امتد بين المغرب ومصر لقرون عديدة امتزجت فيها المقومات الحضارية خاصة في مجال المعمار الذي كان تعبيرا عن قوة الدولة وسيادتها، خلف لنا شواهد معمارية لازالت دالة على هذا التواصل والتفاعل، فالمؤثرات المغربية وجدت في مصر أرضية خصبة، وعقلية قابلة للتطور والتجديد، فلم يقتصر الأمر على التقليد فقط، وإنما امتد للتفاعل، وتراكم الخبرات والتجارب، لدرجة أصبحت الثقافة المغربية رافدا من روافد الثقافة والهوية المحلية والتي انصهرت مع باقي المكونات الأخرى، لتشكل الشخصية المغربية. بحيث لا تخلو مدينة مصرية من آثار وشواهد حضارية مغربية تؤرخ لهذا التواجد الحضاري في طريقة البناء والمواد المستعملة. لذا وجب الاهتمام بهذا الموروث الحضاري وإيلائه المكانة والعناية التي يستحقها باعتباره تراث لامادي وثروة ليست وطنية فقط بل كونية، يمكن استغلالها في المجالات السياسية والاقتصادية والخدماتية والثقافية.

المبحث الثالث: الدور والمشاركة الفعالة التي لعبتها البيوتات المغربية في أوجه النشاط الاقتصادي المصري المختلف

أ– التجارة الداخلية والخارجية:

شاركت البيوتات المغربية التي استقرت في المدينة المصرية أن يكون لها دور المشاركة الفعالة في أوجه النشاط الاقتصادي المصري المختلف طوال العصر العثماني، سواء كان نشاطا؛ تجاريا داخليا أو خارجيا، حرفيا أو صناعيا. كانت في مصر طبقة تجار وسطى مجملها لا ينتمي إلى أصول مصرية، بل أغلبها؛ (شوام– مغاربة– أتراك). إلا أن مصر عن طريق هذه الفئة، كان لها دور مهم في التجارة الدولية عبر البحر الأحمر، فاستقرت في موانئ مصر الشمالية طوائف مغربية وشامية وتركية كبيرة كانت محور لتجارة مصر مع بلدانهم. حيث أحكم المغاربة قبضتهم على هذه التجارة ولم يشاركهم فيها سوى العناصر الأوروبية التي تدخلت منذ بداية القرن 17 في عمليات للنقل البحري، ودون تدخل كبير في التجارة ذاتها[24].

ساهم التجار الفاسيون في تنشيط عملية النقل البحري بين موانئ مصر وشرق البحر المتوسط، عن طريق غير مباشر، حيث كانوا يستأجرون السفن الأوروبية، ويقومون بشحنها بالبضائع الخاصة بهم، وببضائع التجار الآخرين[25]. كما أن اعتماد الدولة العثمانية كذلك على العناصر المغربية المحلية بصورة رئيسية للعمل في البحرية العثمانية كان له دورا مهما في دعم التجار الفاسيين، وعاملا أساسيا في نجاحهم التجاري. فقد أقبلت الدولة العثمانية على استخدام أعداد كبيرة منهم، خاصة "الموريسكيين" كجنود في البحرية العثمانية [26].

خلال الفترة العثمانية تم إحصاء 123 وكالة تجارية ومهنية كانت قائمة في القاهرة فقط ، ومن خلال فحص وثائق المحكمة الشرعية اتضح جليا أنه لا تكاد تخلو وكالة من الوكالات التجارية والمهنية في كل من القاهرة والاسكندرية من وجود بيوتات من التجار المغاربة، وأصحاب المهن الصناعية. بل أن كثيرا من هذه الوكالات سيطر عليها المغاربة سيطرة كاملة أفرادا أو جماعات، وأصبح البعض منها ينسب إلى الأفراد المغاربة؛ وأبرز ها وكالة الزيت "ببولاق" القاهرة[27]. لقد احتكر التجار المغاربة عمليات توريد كميات من الزيت إلى الإدارة المصرية التي كانت تتولى عملية نقله إلى المدن المقدسة؛ كعائلة "أمغار" و "سلطان". نتيجة لذلك أنشأ المغاربة طائفة لهم سميت طائفة "الزياتين المغاربة" من أجل السيطرة على الأسعار والمحافظة عليها، لتحقق لهم أرباحا تضمن لهم خطر مصاريف النقل، فامتلكوا المعاصر في "بولاق" و "الاسكندرية "[28].

أسهم انتشار استخدام الطرابيش والشاشية في نشاط تجاري ملموس للتجار المغاربة في مصر، مما أدى إلى إنماء منطقة "الفحامين" تجاريا خلال النصف الثاني من القرن 18. ظل الطربوش من السمات المميزة للمغاربة، ويبدو أن البيوتات الفاسية كانت ذات أثر واضح في نشر

---

[24]– حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 198.

[25]– نفسه، 6.

[26]– ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في المشرق المتوسطي"، **المجلة التاريخية المغربية**، العدد 7–8، تونس، (1977م)، 35.

[27]–عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517–1798م)"، 51–52.

[28]– حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 199.

ارتداءه في مصر خلال القرن 18، فأصبح المماليك والحرفيون والمشايخ والخدم والفراشون يلبسونه؛ كل حسب مكانته[29]. دائما في ميدان الملابس؛ أسهم التجار المغاربة خاصة الفاسيين إلى جانب الطرابيش، "في نشر (البرانس) الصوفية، والتي ترد صحبة ركب الحج المغربي، فأصبحت محل إقبال كبير من جانب المجتمع المصري خاصة ركب الحجيج. كما كانت النعال المغربية أيضا محل إقبال كبير، حيث كان سوق المغاربة في الاسكندرية، يموج بالعديد من كبار التجار للنعال المغربية"[30].

كان التجار الفاسيون يعرفون جيدا فرص النجاح التي تنتظر التاجر الذي يمارس نشاطه في مدينة ضخمة مثل: القاهرة، خاصة بعد أن تأكد لهم ضخامة هذا النشاط التجاري من خلال قافلة الحج، ومع مضي الوقت بدأ التجار يتمركزون في مناطق داخل القاهرة، واندمجوا مع سكانها، وذلك لعدم وجود تباين في الدين واللغة، وحتى الثقافة[31]. ساهمت قافلة التجار المغاربة في تدعيم البيوتات المغربية في منطقة "خان الخليلي"، و"الأزهر"، وبرز كذلك خلال هذه الفترة شخصية **شهبندر التجار**[32] من خلال عملهم في تجارة البن والتوابل، كبيت **الشرايبي** وغيرهم[33]، والذين لعبوا دورا مهما في النشاط التجاري خلال القرن 18، إذ كانوا يتمركزون في المناطق الأكثر حيوية واستراتيجية داخل القطر المصري. ففي الإسكندرية نجد التجار الفاسيين يسيطرون على حركة التجارة، إذ بدأوا يعملون كوسطاء في نقل البضائع بين التجار ووكلائهم، إضافة إلى تهريب البضائع نحو أوروبا، مما أسهم في ازدياد نشاط البيوتات الفاسية عموما. كما ظهر دور البيوتات التجارية المغربية التي تمتعت بعلاقات تجارية قوية مع اسطنبول والمغرب العربي، والموانئ الأوروبية. كما شهدت مدن؛ "أسيوط" و "الفيوم " وغيرها من مدن مصر نشاطا تجاريا واسعا من خلال العلاقات القوية التي أقامها التجار مع دول غرب إفريقيا، لا سيما في تجارة الرقيق والذهب التي كانت أربح وأغنى الصفقات التجارية[34] آنذاك.

أصبحت هذه البيوتات المغربية بمثابة مصاريف مالية كبيرة تقوم بعملية الإقراض و الشراء و البيع و الرهن و الاستبدال، حتى أن المصادر المعاصرة تجمع على أن الحاج **محمد دادة الشرايبي** هو أول من أوجد الربا في مصر، ذلك لعدم وجود نظام مصرفي بمصر آنذاك. استطاعت هذه البيوت أن تكون لها مكانة اجتماعية متمايزة اعترفت لها بها الفئات الاجتماعية الأخرى من أمراء المماليك، ورجال الإدارة العثمانيين، بل لجأت إليها لإقراضها الأموال[35]، فتودّدوا لهم وتقربوا إليهم، و استجابوا لمطالبهم، ووقفوا إلى جانبهم في كثير من الأمور بغية الحصول على الأموال. حتى أنهم انتموا إلى **أوجقات** الحاميات العسكرية للتمتع بامتيازات أدبية ومادية[36].

قام التجار المغاربة بعملية جلب الكتان المصري من مصادره في الريف المصري، سواء من "الفيوم" أو "بني سويف" وغيرها من الأقاليم، بل قاموا بعملية تمويل زراعته في عدد من أقاليم مصر، ونقله إلى بلدانهم[37]. سيطر التجار المغاربة كذلك على آليات وأدوات تجارة الذهب، وكانوا الوسيط الذي لا غنى عنه لكل من أراد الحصول عليه في مصر، فلم يكن أمام كبار التجار في القاهرة، أو التجار اليهود للحصول على تراب الذهب، إلا تمويل التجار المغاربة بالبضائع للحصول على هذه السلعة الثمينة[38]. كما ربط المغاربة بالإسكندرية علاقات تجارية مع اليهود

---

[29]- نفسه، 203.

[30]- نفسه، 350.

[31] - سليم رجب، **البيوتات التجارية الفاسية في مصر 1800-1700م**، (ليبيا- البيضاء: منشورات جامعة عمر المختار، 2012م)،4 .

[32]- (لقب فارسي يطلق على أكابر التجار سواء من الناحية التجارية، أو الوجاهة الاجتماعية). أندريه ريمون، **القاهرة تاريخ حاضرة**، ترجمة: لطيف فرج، (القاهرة: دار الفكر للنشر، 1994م)، 190.

[33]- نفسه.

[34]- سليم رجب، **البيوتات التجارية الفاسية في مصر1800-1700م، 5.**

[35]- عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م)"، 79.

[36]- نفسه، 80.

[37]- حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 206.

[38]- نفسه، 223.

هناك، إذ مولهم المغاربة بالأموال لدفع مبالغ الالتزام الكبيرة، وكان المغاربة يحصلون على أرباح تقدر ب 10%، إضافة إلى التسهيلات الجمركية[39].

أسهمت البيوت التجارية المغربية في مصر بدور مهم في تجارة مصر مع أوروبا، نتيجة التواجد المغربي الكبير في ميناء "رشيد" و "الإسكندرية"، وقد ساعدهم على ذلك أنهم كانوا يجيدون اللغات الإيطالية والفرنسية[40]. امتد النشاط التجاري لأبناء المغرب إلى كثير من موانئ البحر المتوسط، كما اشتغل الكثير منهم بدور الوسيط عن طريق استيراد المواد الشرقية، وتصديرها إلى أوروبا، فاتخذوا من الاسكندرية محطة أساسية لهم، وأنشأوا أو استأجروا الوكالات والمخازن بهذه المدينة لتخزين السلع التي يجلبونها من بلدان الهند والشرق الأقصى، وموانئ شبه الجزيرة العربية، والموانئ العثمانية. فبدأوا يكونون تنظيماتهم بها، ويلعبون دورهم في بنيتها الحضارية والادارية والاقتصادية، فاشتهروا بتجارة الأقمشة الهندية؛ **كالحاج أحمد الزرهوني ابن الحاج الشاوي الفاسي المغربي**.

نعثر في كثير من الشوارع و الحارات بمصر ذكر في سجلات محكمة الاسكندرية ما حمل أسماء بعض المغاربة، أو تسميات باسم "حارة المغاربة" "عطفة المغاربة" "الشارع المغربي"، وقد كان "سوق المغاربة " من أشهر أسواق الاسكندرية حيث كانت تعرض فيه أنواع الثياب والفرش المغربية؛ من البرانس و الملاحف و الأخفاف الفاسية الطرز، والبسط الصوفية بأنواعها، إلى جانب الأطعمة المعروفة في المغرب ... وكان المتخصصون في بيع كل ذلك رجالا و نساء من المغاربة، بل إن صناعة و نسج الملابس المغربية في الإسكندرية خلال العصر العثماني كانت من أزهى الصناعات في المدينة، حتى أصبح عامة الناس في "الدلتا" يرتدونها. هذا فضلا على أن بعض الوكالات قد سميت بأسماء بعض التجار المغاربة؛ مثل: وكالة **الشرايبي** التي سميت برأس البيت المغربي المشهور في تاريخ مصر الاقتصادي. وكذلك وكالة السيد **أحمد المراكشي**، ووكالة **فتح الله الناظوري** بالإسكندرية[41].

يمكننا تحسس وجود البيت المغربي في مجالات التجارة الداخلية المختلفة، عند أصحاب الحوانيت الصغيرة في الأسواق المختلفة بالمدن المصرية، حيث كان بعضهم ينتج ويسوق جزءا من إنتاجه؛ مثل: أصحاب حوانيت الأحرمة في "طولون"، كما كان بعضهم باعة جائلين سواء سماسرة أو دلالين، كما عمل عدد منهم بالتجارة بين المدن، في مصر خاصة أثناء الموالد والمناسبات والاحتفالات الدينية. حرص عدد كبير من التجار التردد في كل عام على "طانطا" أثناء عيد المولد النبوي، حتى عرفت إحدى الوكالات التي كانوا يترددون عليها ب وكالة "المغاربة". تركز دور التجار المغاربة في التجارة الداخلية بصورة واضحة في التجارة بين القرية والمدينة، التي كانت النشاط الأساسي لمدن الأقاليم الداخلية، والتي يمكن تسميتها بمدن الأسواق[42]، والذي يعد من أشكال المنظمات التجارية المغربية داخل المدن المصرية، أهمها سوق "طولون بالقاهرة"، بل إن الوثائق تثبت وجود أسواق فرعية داخل هذا السوق تقوم على بيع أنواع من السلع المغربية؛ مثل: سوق "الأحرمة" التي كانت حكرا على التجار المغاربة.

ب– الحرف المهنية والصناعية:

ساهم اشتغال البيوتات المغربية بالحرف الاحتكاك المستمر بأفراد المجتمع المصري، فتوطدت العلاقات بين عمليات البيع والشراء وتأدية الخدمات، وعن طريق حوانيتهم ووكالاتهم[43]. استطاع أبناء البيوتات المغربية منذ مطلع العصر العثماني بمصر، أن يلجوا أبواب معظم الحرف

---

[39]– نفسه، 234.

[40]– نفسه، 231.

[41]– محمد حواش، **خطاب التضامن الاسلامي**، 453.

[42]– حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 239.

[43]– عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517–1798م)"، 115.

المهنية والصناعية التي كانت سائدة بمصر آنذاك، و في مختلف المدن المصرية، بل إنهم نقلوا إلى مصر حرفا جديدة، و احتكروا الاشتغال بها، و استطاعوا أن يكونوا رأسمال ضخم، وأن يلعبوا دورا هاما في حياة مصر الاقتصادية و الاجتماعية[44].

إن فحص سجلات المحكمة الشرعية، يوضح بجلاء أن كثيرا من أصحاب هذه الصناعات الحرفية و الإنتاجية؛ خاصة المتخصصين في صناعات عصر الزيوت و الصابون، والعطارة وصناعة الأسلحة و المجوهرات، أصبحت لهم وكالات متخصصة في صنعها، وقد أضحى لهم نفوذ اقتصادي قوي، وتمكنوا من تكوين ثروات ضخمة، لا تقل أهمية عن ثروات فئة التجار، وذلك نتيجة لإدارتهم المحكمة، وإشرافهم الدقيق على هذه الصناعات، وتحكمهم في عمليات الانتاج والتوزيع[45].

كان المغاربة المتخصصون في هذه الصناعات يتدرجون في مراتب هذه المهن الطائفية؛ من "صبي" في الصنعة، إلى "إسطا"، إلى "معلم"، حتى وصل أن الكثير منهم كما تذكر الوثائق إلى مرتبة " مشيخة الطائفة"، سواء في الحي، أو المدينة. كانت للمنتجات الحرفية المغربية شهرتها المحلية والخارجية في الأسواق العربية والأوربية، حتى صناعة الأقمشة. فالمنتج المحلي من الأقمشة والملابس، كانت له شهرة واسعة خاصة ما ينتجه المغاربة؛ مثل: الأحزمة المغربية، والشيلان التي كانت لها آنذاك شهرة لا تعادلها شهرة. هذا إلى جانب الدعاية، فقد وجد "دلالون متخصصون" يقومون بالتسويق على الشوارع والبيوت[46].

كانت الإدارة المصرية عند اتخاذها أي إجراء يخص تعديل الأسعار وتحديدها، تحرص على أن يحضر المغاربة هذه الاجتماعات، وفي هذا الإطار يذكر **الجبرتي** أنه عند ما تم اتخاذ القرارات التي قام **علي أغا** بتنفيذها كان ذلك بحضور؛ "مشايخ الحرف المغاربة"[47]. كما أن البيوتات المغربية أصبح لها دور في توجيه سياسة النظام الإداري في المدينة أيضا؛ وهذا ناتج عن عاملين أساسيين:

–الثراء الضخم الذي أصبح عليه الكثير من هذه البيوتات؛ خاصة التجار الذين لعبوا دورا اقتصاديا لا يستهان به، فنجدهم يقرضون الأموال لكثير من أمراء المماليك آنذاك، خاصة في القرن 18 كأسرة؛ **الدادي الشرايبي**.

–انتماؤهم لأوجقات الحامية العثمانية إلى حد التزاوج والتمتع بامتيازاتها، ومصاهرة أسر هذه الحامية والاندماج فيها[48]، فكثير من أسرة **الشرايبي** ينتمون إلى أوجقات العثمانية المختلفة[49]. وقد ساهمت الثروات الكبيرة التي كونتها العائلات المغربية بعملية حراك اجتماعي واسع، حيث سعت هذه النخبة التجارية إلى الارتباط والاختراق والدخول في النخبة العسكرية الحاكمة، والفئة الأرستقراطية الشريفة والعلمية[50].

لم يكن اندماج البيوتات المغربية في المجتمع لينجح اقتصاديا كل هذا النجاح، لولا اندماجهم وتأقلمهم الاجتماعي في بنيان المجتمع المصري، وفهمهم العميق للشخصية المصرية، وبنية عمارة مدنها، فضلا عن الأمن والاستقرار الذي نعموا به منذ وصولهم مهاجرين إلى مصر، إلى جانب عدم وجود فواصل في اللغة و الدين ، فقد أسهم التواجد المغربي الكبير في مصر ازدهار الأنشطة التجارية والحرفية؛ سواء في الأسواق والوكالات التي مارسها أبناء البيوتات المغربية، والتي كان لها تأثير فعال على حراك مصر الاقتصادي، خاصة وأنها أصبحت تتحكم في إنتاج وتوزيع الكثير من السلع.

---

[44]– عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني، (1517-1798م)"،82.

[45]– نفسه، 84.

[46]–عمر عمر عبد العزيز، **مجتمع الإسكندرية عبر العصور**، (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، مجموعة محاضرات ألقيت في ندوة بكلية الآداب، 1983م)، 320.

[47]–عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في تراجم الأخبار**، ج 1، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1998م)، 90.

[48]– محمد حواش، **خطاب التضامن الاسلامي**، 455.

[49]– عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، **المغاربة في مصر في العصر العثماني**، 53.

[50]– حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، 339.

على سبيل الختم:

كانت البيوتات المغربية في مصر من أكبر البيوتات الإسلامية العربية الوافدة إلى مصر خلال العصر العثماني، كما أنها لم تنتشر في مصر وحدها، بل كانت لها فروع في كثير من أنحاء العالم الإسلامي إبان هذه الحقبة، مما أسهم في تفعيل دور هذه العائلات في التجارة الخارجية عن طريق الشبكات التجارية التي ربطت بينها. كما أنها ترجع إلى ظروف عملية وثائقية بصورة أكبر، حيث تردد المغاربة بصورة أوسع من غيرهم على المحاكم، ربما بسبب كونهم من الوافدين الغرباء، فقد حرصوا على تسجيل أملاكهم وتعاملاتهم، لتأكيد هويتهم ووجودهم مما وفر المادة العلمية لهذه الدراسة. كما تكشف دراسة تاريخ البيوت التجارية المغربية عن التطور الاقتصادي والاجتماعي والعمراني من داخلية بناء النظام الحياتي للناس وللمجتمع، وليس من خلال الدولة والقوانين والنظم، كما أنها تقدم نظرة متعددة الزوايا لشخصيات هذه البيوت التي تناولتها، فتتضمن المظاهر المختلفة لعلاقاتهم بالمجتمع، مما يساعدنا على أن نضع:

–التغيرات الاقتصادية: مستهدفين دراسة الإثراء التجاري، وعوامل نجاح العائلات التجارية المغربية في مصر، وأساليبهم لتكوين الثروات بالاتجاه للتجارة في السلع والبضائع الترفيهية المطلوبة، التي تحقق أرباحا عالية؛ مثل: البن، والأقمشة القطنية الهندية، ودورهم في ميدان الالتزام وتقديمهم القروض للطالبين من الأمراء والتجار والملتزمين ثم استثماراتهم. ثم يأتي دور التجار المغاربة في التنظيمات التجارية في الأسواق المصرية؛ تنافسهم مع الشوام والأتراك والمصريين لتولي منصب **شاهبندر التجار** رأس التجارة المصرية، وكذلك رئاستهم للأسواق، وأخيرا علاقة هؤلاء التجار بالسلطة الحاكمة.

–التغيرات العمرانية: ذلك الحراك الاجتماعي والحياة داخل البيت المغربي في مصر والذي شكيل المعالم الحضارية والعمرانية في مصر مثل إنشاء الوكالات والمساجد والأحياء ودعمهم للبنية الحياتية للحياة في المدن التي عاشوا فيها.

كل ذلك في قالب اجتماعي بدلا من دراستها كظاهرة مجردة منعزلة عن أي قالب معين، كون مؤسسة البيت المغربي تصلح أن تكون مؤشرا لتطور تاريخي بعيدا عن الوجود العثماني.

المراجع والمصادر:

- اسماعيل عثمان عثمان، **تاريخ العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج1، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة 1993م).
- أندريه ريمون، **القاهرة تاريخ حاضرة**، ترجمة: لطيف فرج، (القاهرة: دار الفكر للنشر، 1994م).
- جورج مارسيه، **الفن الاسلامي**، ترجمة: عفيف بهنسي، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، 1968م).
- حسام محمد عبد المعطي، **البيوت التجارية المغربية في مصر العثمانية**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2008م).
- سليم رجب، **البيوتات التجارية الفاسية في مصر 1800-1700م**، (ليبيا- البيضاء: منشورات جامعة عمر المختار، 2012م).
- عبد الحفيظ محمد علي، **دور الجاليات الأجنبية والعربية في الحياة الفنية في مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: دراسة أثرية حضارية وثائقية**، ج 1،(القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، مخطوط رسالة دكتوراه، 1421هـ/ 2000م).
- -عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، **عجائب الآثار في تراجم الأخبار**، ج 1، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1998م).
- علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور (الرباط: المطبعة الملكية، ط 2، 1411هـ /1991م).
- -عمر عمر عبد العزيز، **مجتمع الإسكندرية عبر العصور**، (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، مجموعة محاضرات ألقيت في ندوة بكلية الآداب، 1983م).
- فرغلي شيرين فوزي، **قصر الأمير محمد علي وملحقاته بجزيرة الروضة**، ج 1، (القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية دراسة أثرية معمارية. مخطوط رسالة ماجستير، 1430هـ/ 2009م).
- مارسيه جورج، **الفن الإسلامي**، ترجمة: عبلة عبد الرازق، (القاهرة: منشورات المركز القومي للترجمة، ط1، 2016م).
- مبارك علي، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، ج 1، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، ط1، 1306هـ).
- **الدوريات:**
  - -عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، "المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798م)"، **المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية**، تونس، (1982م).
  - ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في المشرق المتوسطي"، **المجلة التاريخية المغربية**، العدد 7-8، تونس، (1977م).
  - محمود سيد أبو المجد- جمال عبد الرحيم إبراهيم- عائشة محمد التهامي، "التأثيرات المغربية الأندلسية على العمارة الاسلامية في مصر"، **المجلة الدولية للتراث والسياحة والضيافة IJHTH**، تصدرها كلية السياحة والفنادق، جامعة الفيوم، المجلد 15، العدد 2، مصر، (2021م).